

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الرحمة النبوية على المستوى الشخصي والمولوي والتقني

وموقع اللين والرحمة في صناعة الاطار العام لعملية الاستنباط وفي القيادة

(٨)

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(١)

بصائر النور في آية الرحمة واللين

إن (اللين) في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ ذو تجليات عديدة على مستويات مختلفة، كما انه يستبطن الأنواع التالية: اللين على المستوى الشخصي، وعلى مستوى التقنين والتشريع، وعلى مستوى الولاية والقيادة والحكومة. والفرق بين هذه الأنواع الثلاثة كبير والنسبة بينها هي العموم من وجه إذ قد يكون الشخص ليناً على المستوى الشخصي وفي تعامله مع الآخرين كصديق أو زميل أو غير ذلك لكنه يكون صارماً في تطبيق القوانين غير متسامح بل قاسياً عنيفاً مع من يخالف اللوائح: فإذا خالف أحدهم قوانين الشركة مثلاً مرةً وبخه، أو مرتين قطع راتبه، أو ثلاث مرات فصّله! ومثل هذا الشخص قد لا تجد للعفو في قائمته عيناً ولا أثراً، وقد يكون الأمر بالعكس تماماً فبينما تراه عنيفاً في تعامله الشخصي مع الآخرين، تجده متسامحاً بل متساهلاً في تطبيق القوانين.

وكذلك الأمر على مستوى القيادة والزعامة والرئاسة فقد يكون القائد في بعده الشخصي ودوداً من أصدقائه وجيرانه أو حتى مع أعدائه لكنه يكون في البعد القيادي عنيفاً حشناً داخلياً هجوماً خارجياً، وقد يكون بالعكس من ذلك تماماً. هذا من جهة.

النسبة بين الرفق والعنف

ومن جهة أخرى: فإن النسبة بين الرفق والعنف هي نسبة الضدين اللذين لهما ثالث فإن الشخص قد يكون رقيقاً بأبنائه أو أعضاء منظمته ليناً معهم، وقد يكون عنيفاً فظاً قاسياً حشناً، وقد يكون بين ذلك فلا هو بالفظ الغليظ ولا هو باللين الرفيق.. وكل ذلك مما يتموج على أداء الإنسان في تلك المستويات الثلاث بدرجة وأخرى..

ومن جهة ثالثة: فإن هنالك درجات كثيرة للرفق ودرجات كثيرة للين ومراتب كثيرة في المراحل المتوسطة بينهما.

وأما رسول الله المصطفى محمد ﷺ فلقد تجلت رحمة الله تعالى في وجوده المبارك على كافة المستويات: على المستوى الشخصي وفي البعد الولائي (الولوي) وعلى مستوى التقنين والتشريع أيضاً وبأعلى الدرجات فيها جميعاً.

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

أولاً: اللين على مستوى التشريع والتقنين

من المعروف أن الله تعالى فوّض بعض أمر التشريع إلى رسوله المصطفى ﷺ فقد ورد «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَدَبَ نَبِيِّهِ ﷺ، فَلَمَّا انْتَهَى بِهِ إِلَى مَا أَرَادَ قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»^(١) فَفَوَّضَ إِلَيْهِ دِينَهُ»^(٢).

وقد ورد التعبير في الروايات عما شرّعه الرسول ﷺ (بسنّة الرسول) وعما شرّعه الله تعالى مباشرة (بفرض الله) فالركعتان الأولىان من الرباعيتين هما من فرض الله والأخيرتان هما من سنة الرسول ﷺ ولذا دخلتها أحكام الشك دون الأوليين بل كان الشك في الأوليين من الرباعيتين مبطلاً.

وساطة النبي ﷺ لتخفيف الصلوات اليومية من خمسين صلاة إلى خمسة!

وقد تجلّى اللين النبوي بشفاعته للأمة حتى في مرحلة التشريع الإلهي إذ توسّط رسول الله ﷺ لدى رب العالمين مراراً عديدة لتخفيف من بعض الأحكام الإلهية.

ومن ذلك ما ورد من أن الله تعالى شرّع في البداية خمسين صلاةً في اليوم الواحد ولكن النبي ﷺ توسط لدى الله مراراً عديدة حتى أوصلها إلى خمس صلوات فقط (ومع ذلك نجد أن الكثير من الناس لا يلتزم بها!!).

والسرّ واضح في كلتا الجهتين: أ- إما تشريع الخمسين فالأنه كانت فيها المصلحة الواقعية للعباد ولأنهم خلق الله ولو أنهم عبدوا الله تعالى ليل نهار لما أدّوا عُشر معشار حقه عليهم! بل كلما عبدوه بشيء استحق عليهم شكرهم له وعبادته إياه لتوفيقه لهم لعبادته!

ب- وأما التخفيف فلمصلحة التسهيل على العباد وأنه ﷺ كان كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ فقد زاحمت مصلحة التسهيل المصلحة الواقعية فانتجت التخفيف!

ثم أن الرسول ﷺ حاول الجمع بين الحقين بإضافته ركعات (إذ كانت الصلوات الخمس تتكون من عشر ركعات فأضاف ﷺ سبعة فصارت سبع عشرة ركعة) وجوباً ثم أضاف أربعاً وثلاثين ركعة استحباباً فبلغت (٥١) ركعة بين واجب ومستحب بعد أن كانت مائة ركعة موزعة على خمسين صلاة كلها واجبة!

وتلك الشفاعة النبوية هي مجلى من مجالي تأديبه تعالى له إذ عرفه ملاكات الأحكام والمصالح والمفاسد وتزاحماتها جميعاً، وما يحبه تعالى وما يريده وقد كان منه هو مما قرره الله تعالى بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٣).

وقد فصلنا البحث عن ذلك في كتاب (فقه المعارض والتورية) وغيره فراجع.

ثانياً: اللين على المستوى الولوي والقيادي

فقد كان الرسول ﷺ في قيادته للأمة وفي إعماله ولايته عليهم في منتهى اللطف والرفق والمدارات ولذا نجده ﷺ قد عفى عن المنافقين ولم يؤاخذ المتأمرين حتى أولئك الذين سعوا لقيادة انقلاب عسكري عليه وخططوا لاغتياله وكادوا ينجحون في ذلك

(١) سورة القلم: آية ٤.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٦٧.

(٣) سورة البقرة: آية ١٨٥.

لولا إحباط المؤامرة في اللحظات الأخيرة وذلك في مواطن عديدة ومنها في قضية الدباب التي دحرجوها في ثنية الجبل في ظلام الليل.

«فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا حُدَيْفَةُ إِذَا كَانَ اللَّهُ يُثَبِّتُ مُحَمَّدًا لَمْ يَقْدِرْ هَوْلًا وَلَا الْخَلْقُ أَجْمَعُونَ أَنْ يُرِيدُوهُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَالِغٌ فِي مُحَمَّدٍ أَمْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ثُمَّ قَالَ يَا حُدَيْفَةُ فَانْهَضْ بِنَا أَنْتَ وَسَلْمَانُ وَعَمَّارٌ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فَإِذَا جُرْنَا الشَّيْئَةَ الصَّعْبَةَ فَأَذْنُوا لِلنَّاسِ أَنْ يَتَّبِعُونَا فَصَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَحُدَيْفَةُ وَسَلْمَانُ أَحَدُهُمَا آخِذٌ بِخَطَامِ نَاقَتِهِ يَقُودُهَا وَالْآخَرُ خَلْفَهَا يَسُوقُهَا وَعَمَّارٌ إِلَى جَانِبِهَا وَالْقَوْمُ عَلَى جِمَالِهِمْ وَرَجَالَتُهُمْ مُنْبَثُونَ حَوَالِي الشَّيْئَةِ عَلَى تِلْكَ الْعُقَبَاتِ وَقَدْ جَعَلَ الَّذِينَ فَوْقَ الطَّرِيقِ حِجَارَةً فِي دِبابِ فَدَحْرَجُوهَا مِنْ فَوْقٍ لِيَنْفَرُوا النَّاقَةَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِنَفْعِ فِي الْمَهْوَى الَّذِي يَهُولُ النَّاطِرُ النَّظْرُ إِلَيْهِ مِنْ بُعْدِهِ فَلَمَّا قَرَبَتِ الدَّبَابُ مِنْ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا فَارْتَفَعَتْ ارْتِفَاعًا عَظِيمًا فَجَاوَزَتْ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ سَقَطَتْ فِي جَانِبِ الْمَهْوَى وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا صَارَ كَذَلِكَ وَنَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْهَا لَا تُحْسُ بِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْقَعَقَعَاتِ الَّتِي كَانَتْ لِلدَّبَابِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمَّارٍ اصْغِدِ الْجَبَلَ فَاصْرُبْ بِعَصَاكَ هَذِهِ وَجُوهَ رَوَاحِلِهِمْ فَارْمِ بِهَا...»^(١)

والكلام في هذا الحقل أيضاً طويل يحتاج، كسابقه، إلى كتابة مجلد ضخم.

ثالثاً: اللين على المستوى الشخصي

ولقد كان الرسول ﷺ في تعامله الشخصي مع الناس في منتهى اللطف والرفق واللين معهم وكان يعاملهم كأخ شفيق وأب رقيق بل كأفضل أب وأخ عرفهما العالم كله.

نماذج متألفة من اللين النبوي ﷺ

وهذه بعض المشاهد المشرقة التي تزيح الستار عن جانب من تكلم الجوانب الرائعة:

عن الإمام الصادق «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ لِحَظَاتِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَيَنْظُرُ إِلَى ذَا وَيَنْظُرُ إِلَى ذَا بِالسَّوِيَّةِ»^(٢).

ولعل ذلك يعد من أصعب الأمور على القائد الجماهيري فإن الرسول ﷺ كان يعيش في بحر من الناس، وكان يخرج إليهم على امتداد ساعات اليوم: ففي أوقات الصلوات كان في متناول أيديهم وفي أوقات النوافل أيضاً كان كذلك إذ كان يصلي نوافله في المسجد، كما أنه كان وهو في داخل المدينة يعيش كأحد الناس ويمشي بلا حراس وكان يحلب بنفسه عنز أهله وكان في الحروب أيضاً في متناول أيدي أصحابه.

وقد كان ﷺ كثير الجلوس مع أصحابه ولعله جلس معهم طوال عشر سنوات في المدينة عشرات الألوف من الجلسات.. ومن هنا ندرك مدى صعوبة أن يقسم لحظاته بين أصحابه بالسوية فإن الإنسان العادي يصعب عليه أن يقسم لحظاته بين أصحابه بالسوية لضرورات التواصل عادة ولكن الرسول ﷺ رغم اختلاف مستويات الحضور، بين عالم وجاهل وتاجر ومعدم

(١) الاحتجاج: ج ١ ص ٥٤.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٦٧١.

ومؤمن ومنافق، كان يقسم لحظاته بينهم بالسوية!

وورد «وَأِنْ كَانَ لِيَصَافِحُهُ الرَّجُلُ فَمَا يَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ التَّارِكُ، فَلَمَّا فَطَنُوا لِذَلِكَ كَانَ الرَّجُلُ إِذَا صَافِحَهُ مَالَ بِيَدِهِ فَزَعَعَهَا مِنْ يَدِهِ»^(١) وذلك من الصعب حقاً على كل من ازدحم جدول أعماله بالنشاطات والمسؤوليات إذ أن الكثير من الناس يطيلون المصافحة ولا يكادون يتركون يدك إلا بعد فترة قد يكون ذلك صعباً على أي

شخص، فكيف بنبي وقائد وموجه ورائد على مستوى الأمة، مضطجع بمسؤوليات وأدوار تنوء بحملها الجبال الراوسي!

وكان من نتائج ذلك كله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٢) بينما نرى العكس من ذلك تماماً الآن وذلك يعود، بدرجة أساسية، إلى أن المعادلات الثلاث (اللين على المستوى الشخصي والولوي والتقني) قد انقلبت إلى الضد تماماً!

وورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ص لَيْسُرَ الرَّجُلِ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذَا رَأَهُ مَغْمُومًا بِالْمُدَاعَبَةِ وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْمُعْبَسَّ فِي وَجْهِ إِخْوَانِهِ»^(٣) وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ص يُدَاعِبُ الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ يَسُرَّهُ»^(٤) وذلك مما يكشف عن عمق الأبعاد الإنسانية في حياة رسول الله ﷺ حيث أنه لم يكن يترك الرجل مغموماً بل كان يحاول أن يسره بالمزاح والمداعبة رغم أن أكثر القادة يرون المزاح، خاصة مع عامة الناس، سبباً لكسر حاجز الهيبة بينهم وبينهم بل سبباً لفقد الوجهة والتميز الاجتماعي الذين يتخيلونه! ورغم أن غالب أصحاب النبي ﷺ كانوا من الفقراء والبسطاء والمستضعفين، ومع ذلك كان ﷺ لا يترك رجلاً يراه مغموماً إلا حاول أن يسره بمداعبته!

وورد في الغرر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِذَا عَلِمَ أَنْ لَا يُعْنَفَ وَإِذَا عَلِمَ أَنْ لَا يَأْنَفَ»^(٥)

والمقصود من إذا علم: إذا علم بصدور خطأ من غيره أو معصية أو شبه ذلك؛ وذلك لأن الأصل هو ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٦) والاستثناء هو ما إذا تعذر التأثير على العاصي أو المخطئ بمجرد ذلك فإنه حينئذٍ فقط ينتقل إلى المراتب اللاحقة من مراتب الأمر بالمعروف.

كما أن اللازم أن يكون العاقل ممن (إذا علم أن لا يأنف) فإن من طبع الإنسان أن يكره الإقرار بالجهل والإقرار بتفوق الغير عليه خاصة إذا كان يرى ذلك الغير أدون منه مستوى فكيف يقر له بأنه يعلم مسألة لا يعلمها هو؟ لذا نجد العالم كثيراً ما يأنف من أن يتعلم المسألة من غيره ظناً منه بأن ذلك يخل بمكانته ويقلل من وجاهته ويزهد الناس فيه! مع أن الأمر، لدى التدبر، على العكس من ذلك تماماً.

(١) الكافي: ج ٢ ص ٦٧١.

(٢) سورة النصر: آية ١-٣.

(٣) كشف الريبية (للشهيد الثاني): ص ٨٢.

(٤) الكافي: ج ٢ ص ٦٦٣.

(٥) غرر الحكم: ص ٤٤.

(٦) سورة النحل: آية ١٢٥.

مقاصد الشريعة تحدد مسار الفكر والتفقه واتجاه القيادة والإدارة

لقد مضى الحديث عن مجموعة من العوامل التي تكشف مدى أهمية البحث المستوعب عن مقاصد الشريعة، ونضيف: إن من جهات أهمية البحث المستوعب والشمولي والدقيق عن مقاصد الشريعة هو أنها تضطلع بتحديد المسار العام لعملية الاستنباط الفقهي والاتجاه العام للتفكير والتوجه العام للقائد والقيادة على أي مستوى كانت... ويمكننا أن نستعرض ذلك على مستويين: مستوى علم النفس، ومستوى علم الفقه.

التفكير الشمولي والتجزئي في منظر علم النفس

أما على مستوى علم النفس، فقد أثبتت الدراسات المستفيضة في علم النفس والأعصاب المخ، ودلت التجارب الميدانية على أن الناس يفكرون بطريقتين وأن التفكير ينقسم إلى قسمين: القسم الأول التفكير الشمولي والقسم الثاني: التفكير التجزئي. **القسم الأول:** التفكير الشمولي، وهو التفكير الذي يضع المفردات سواء أكانت هامة أم هامشية، في سياقاتها العامة فينظر إلى الصورة العامة والسياق العام والنسق العام ويدرس القضية أو الحادثة أو المسألة أو المعادلة في ضمن الإطار العام والصورة الأكبر.

القسم الثاني: التفكير التجزئي، وهو التفكير الذي يقوم بعزل القضايا المفردة عن جوها العام وسياقها الطبيعي ويركز العدسات على المفردة بذاتها وبما لها من الخصوصيات.

ومن الواضح أن السياق العام والإطار الكلي (قد) يغير من دلالات القضية والحادثة أو المفردة والنص، والتعبير بـ(قد) دقيق لأنه لا إطلاق لذلك بل قد تعصى بعض النصوص أو الحوادث عن أن يؤثر فيها السياق أو الإطار العام، كما فصلناه في كتاب (نقد الهرمينوطيقا ونسبية اللغة والحقيقة والمعرفة) وكتاب (نسبية النصوص والمعرفة: الممكن والممتنع).

وقد أجرى علماء النفس تجارب كثيرة في هذا المضمار، نشير ههنا إلى تجربتين منها:

مراقبة حركة الأعين تكشف نوعية المفكر!

الأولى: أعطى الباحثون صوراً عديدة تتضمن مشاهد معينة لأشخاص مختلفين من بلاد الشرق والغرب، ثم ركزوا على تتبع حركة أعين الأفراد ونقطة تركيزهم وههنا اكتشفوا أن الأشخاص ذوي التفكير الشمولي يركزون على خلفية الصورة والمشاهد الخلفية التي احتضنتها بدل التركيز - أو بنفس درجة التركيز - على محور الصورة الذي التقطت الصورة لأجله.

أما الأفراد ذوي التفكير التجزئي فانهم يركزون على المحور الذي التقطت الصورة لأجله، بالأساس.

ولنتصور أن المصور التقط صورة لصائد يصيد سمكة، فالمفكر التجزئي تكون محطته تركيزه الصائد والسمكة والصنارة، أما الشمولي فانه يركز أكثر - أو بدرجة مساوية - على الخلفية العامة للمشاهد كالبحر الهادئ أو الهائج وأمواجه المتكسرة والغيوم المتجمعة في كبد السماء في الأفق البعيد وشبه ذلك.

ومن الواضح أن هذه كلها مؤشرات على نمط وشاكلة تفكير الإنسان، وهي - كما نؤكد دائماً - بنحو المقتضي وليست

بنحو العلة التامة.

انتخاب المفردات مرآة لنوع التفكير

الثانية: أعطى الباحثون قصاصات تحتوي على ثلاث كلمات مثل (قطار، سيارة، مسار) وطلبوا من أشخاص مختلفين انتخاب كلمتين فقط، وكانت النتيجة أن ذوي التفكير التحريفي اختاروا كلمة قطار وسيارة، لأنهما كمفردتين تشكلان قيمة كبيرة لهم أما ذووا التفكير الشمولي فاختاروا (قطار - مسار) أو (سيارة - مسار) إذ كان وعيهم الباطن يدفعهم لتكوين صورة أوسع وهي (قطار في مسار مثلاً).

ويمكنكم أيضاً تجربة كلمات ثلاث أخرى مثل (علم، عمل، هدف) فالتحريفي يختار مفردتي (علم - عمل) لما لهما من الأهمية، أما الشمولي فيختار (علم - هدف) أو (عمل - هدف) إذ انه يرى العلم بلا هدف بلا معنى فإن العلم الهادف هو النافع والمطلوب لا غير فيكون قد وضع الكلمتين في سياق عام مفهوم.

التفكير الشمولي ومقاصد الشريعة في عملية الاستنباط الفقهي

وأما على المستوى الفقهي، فلنضرب لذلك مثلاً هاماً من كتاب الحج في إحدى أهم مسأله التي يتلى بها الناس عادة.

تقديم الطوافين على الوقوفين في الحج، اختياراً

والمسألة هي: أن أعمال الحج متسلسلة متعاقبة حسب جدول زمني وترتيب خاص بينها^(١): فيجب مثلاً الوقوف بعرفات ثم بالمشعر ثم أداء مناسك منى الثلاث ثم طواف الزيارة وركعتاه والسعي وطواف النساء وركعتاه، ولا يجوز ولا يصح تقديم الطوافين والسعي على الوقوفين من غير عذر حسب المشهور الذي كاد أن يكون إجماعياً. ولكن ذهب إلى خلاف ذلك جمع قليل جداً فقالوا بأنه يجوز حتى اختياراً ومن غير عذر تقديم الطوافين على الوقوفين وأعمال منى. والسبب في الاختلاف وجود طائفتين من الروايات تبدوان متعارضتين. وننقل هنا كلام السيد الوالد رضوان الله عليه في الفقه أولاً ثم نتوقف لاستكشاف كيفية مدخلية فقه المقاصد في ترجيح هذه الطائفة على تلك أو العكس.

قال السيد في الفقه (الحج): ((مسألة ٣٣): المشهور أنه يجب على المتمتع تأخير الطواف والسعي للحج حتى يقف بالموقفين ويأتي بمناسك منى.

قال في الجواهر: بلا خلاف محقق معتد به أجده، بل الإجماع بقسميه عليه، بل المحكي منها مستفيض أو متواتر، بل في

(١) وقد جمعها الشيخ البهائي الفقيه المعروف في الأبيات التالية معتمداً على أول حرف من كل عمل:

(أطرســـــت) للعلمـــــرة اجمعـــــل نَهـــــج أو و ارنحـــــط رســـــطرم رلجـــــح

ف: أ = إحرآم، ط = طواف، ر = ركعتاه، س = سعي، ت = تقصير.

أما الحج: أ = إحرآم، و = الوقوف بعرفات.

و = الوقوف بالمشعر، إ = الافاضة إلى منى.

ر = رمي، ن = نحر، ح = حلق، ط = طواف الزيارة، ر = ركعتاه، س = السعي، ط = طواف النساء، ر = ركعتاه، م = مبيت بمنى، ر = الرمي فهذه كلها للحج.

محكي المعبر والمنتهى والتذكرة نسبته إلى إجماع العلماء كافة^(١).

خلافاً للمحكي عن ظاهر الخلاف والتذكرة ومحتمل التحرير وجماعة من متأخري المتأخرين فقالوا بجواز التقديم اختياراً. وإنما وقع الاختلاف لوجود طائفتين من الأخبار تدل على كلا القولين.

أما القول الأول: فقد استدل عليه بخبر أبي بصير، قلت: رجل كان متمتعاً فأهلّ بالحج، قال ﷺ: «لا يطوف بالبيت حتى يأتي عرفات، فإن هو طاف قبل أن يأتي منى من غير علة فلا يعتد بذلك الطواف»^(٢)...^(٣).

و(أما القول الثاني: فقد استدل بجملة أخرى من الروايات، مما توجب الجمع بين الطائفتين بحمل الأولى على خلاف الأفضل، كموثقة إسحاق، عن رجل يجرم بالحج من مكة ثم يرى البيت خالياً فيطوف قبل أن يخرج، عليه شيء، قال: «لا»^(٤). وصحيحة علي بن يقطين، عن الرجل المتمتع يهلّ بالحج ثم يطوف ويسعى بين الصفا والمروة قبل خروجه إلى منى، قال: «لا بأس»^(٥)...^(٦).

الجمع الدلالي بين الطائفتين من الروايات

ثم قال: (والجمع الدلالي بين الطائفتين بعد إسقاط ضعيف الدلالة منهما يقتضي جواز التقديم.

وهذا هو الذي يقتضيه الاعتبار، فإن كثرة الحجاج يقتضي أن يجوز ذلك لئلا يقعوا في العسر بلزوم طوافهم وسعيهم كلهم مرة واحدة بعد الحج، خصوصاً عند من يرى أن وقتها إلى ثلاثة أيام بعد العيد)^(٧).

قاعدة اليسر من المرجحات غير المنصوصة لدى التعارض

وتوضيحه: أن قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ يكشف عن واحد من (أهم) مقاصد الشريعة، ولكن حيث أن من الواضح أنها^(٨) تشكل إحدى الملاكات ولذا لا يمكن استنباط الحكم منها مباشرة إذ لا يعلم لعل هناك ملاكاً آخر أقوى مزاجاً لملاك التيسير كما في الجهاد والخمس والزكاة والحج وغيرها.

ولكن ومع ذلك، وفي الاتجاه المقابل، فإن مقاصد الشريعة، كدليل اليسر، يمكن أن تعتبر مرجحاً في باب تعارض الأخبار بناء على التعدي من العلل المنصوصة إلى غيرها حسب ما ذهب إليه الشيخ والعلل المنصوصة مثل ما ورد في مرفوعة العلامة عن زرارة: «خُذْ بِمَا اشْتَهَرَ بَيْنَ أَصْحَابِكَ وَدَعِ الشَّاذَّ النَّادِرَ، فَقُلْتُ يَا سَيِّدِي إِنَّهُمَا مَعاً مَشْهُورَانِ مَرْوَبَانِ مَأْتُورَانِ عَنْكُمْ فَقَالَ ﷺ: خُذْ بِقَوْلِ أَعْدَلِهِمَا عِنْدَكَ وَأَوْثَقِهِمَا فِي نَفْسِكَ فَقُلْتُ إِنَّهُمَا مَعاً عَدْلَانِ مَرْضِيَّانِ مُوثَقَانِ فَقَالَ

(١) الجواهر: ج ١٩ ص ٣٩١ في وجوب تأخير الطواف السطر ١٨.

(٢) الوسائل: ج ٨ ص ٢٠٣ الباب ١٣ من أبواب أقسام الحج ح ٥.

(٣) الفقه (الحج): ج ٤٥ ص ٢٥٩.

(٤) الوسائل: ج ٨ ص ٢٠٣ الباب ١٣ من أبواب أقسام الحج ح ٧.

(٥) الوسائل: ج ٨ ص ٢٠٣ الباب ١٣ من أبواب أقسام الحج ح ٣.

(٦) الفقه (الحج) ج ٤٥ ص ٢٦١.

(٧) الفقه (الحج): ج ٤٥ ص ٢٦١-٢٦٢.

(٨) إرادة اليسر.

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: انْظُرْ مَا وَافَقَ مِنْهُمَا مَذَهَبَ الْعَامَّةِ فَاتْرُكْهُ وَخُذْ بِمَا خَالَفَهُمْ قُلْتُ رَبِّمَا كَانَا مَعَا مُوَافِقِينَ لَهُمْ أَوْ مُخَالَفِينَ فَكَيْفَ أَصْنَعُ فَقَالَ إِذَنْ فَخُذْ بِمَا فِيهِ الْحَاطَّةُ لِدِينِكَ وَاتْرُكْ مَا خَالَفَ الْإِحْتِيَاطَ فَقُلْتُ إِنَّهُمَا مَعَا مُوَافِقَانِ لِلْإِحْتِيَاطِ أَوْ مُخَالَفَانِ لَهُ فَكَيْفَ أَصْنَعُ فَقَالَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إِذَنْ فَتَخَيَّرْ أَحَدَهُمَا فَتَأْخُذْ بِهِ وَتَدَعِ الْأُخَيْرَ^(١) ومثل ما ورد في مقبولة عمر بن حنظلة «الْحُكْمُ مَا حَكَمَ بِهِ أَعْدَلُهُمَا وَأَفْقَهُهُمَا وَأَصْدَقُهُمَا فِي الْحَدِيثِ وَأَوْرَعُهُمَا وَلَا يَلْتَفِتْ إِلَى مَا يَحْكُمُ بِهِ الْآخِرَ»^(٢) بناء على شمول ذلك للأخبار وعدم اختصاصه بباب القضاء.

وأما دليل ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ فإنه ليس من المرجحات المنصوصة في باب تعارض الأخبار، ولكن من يرى التعدي عن المنصوصة إلى غيرها لقرائن ذكرها الشيخ وغيره (وقد فصلناها في بعض الكتب^(٣)) فإن له أن يرجح روايات صحة تقديم الطوافين على الوقوفين، استناداً إلى قاعدة التيسير، وذلك كان توضيحاً للمبنى الذي رجح به السيد الوالد طائفة اخبار جواز التقديم، مما يكشف عن أهمية مقاصد الشريعة في معادلة الاستنباط لو كان نظر الفقيه إيجابياً تجاهها ولكن - وبلا شك - في ضمن ضوابط الاستنباط.

نعم قال بعد ذلك (كما أن فعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهما بعد منى يؤيد قول المشهور، لكن موافقة الأخبار الأولية للمشهور وموافقة الأخبار الثانية للعام كما قيل، يوجب عدم إمكان الفتوى بجواز التقديم، فالاحتياط بالتأخير لغير المضطر لا بد من رعايته، وإن كان قُرْبُ اتِّحَادِ حَكْمِي التَّمَتُّعِ والمفرد^(٤) مع جواز التقديم في المفرد يقوي جواز التقديم في التمتع أيضاً^(٥)).

لكنه - حسبما نُقِلَ عنه مكرراً - فإنه في أواخر عمره المبارك يبدو أن مقصد التيسير تقوى في نظره أكثر فرفع يده عن الاحتياط الوجوبي أيضاً وأجاز - حسب المنقول - تقديم الطوافين على الوقوفين للمختار من غير عذر. وأخيراً: يمكن إلقاء الضوء على مدى أهمية الإطار العام ومدخلية السياق في التغيير الشامل أو النسبي^(٦) لاتباه دلالة المفردة أو النص أو في كيفية التأثير في عملية الاستنباط، بالشجرة في الغابة فإن الغابة لها هيئة اجتماعية خاصة وقد يعبر عنها بالعلة الصورية، ولهذه الهيئة آثار على البيئة وغيرها ولكن الأشجار لو انفصلت عن بعضها البعض فكان الفاصل بين كل شجرة وأخرى كيلو متراً مثلاً فإن هذه الأشجار لا تمتلك حينئذٍ التأثير على البيئة ولا تكون حينئذٍ مأوى للحيوانات ولا تصلح محلاً للارتياح والنزهة أو شبه ذلك^(٧) وللبحث صلة بإذن الله تعالى.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين

(١) عوالي اللئالي: ج ٤ ص ١٣٣.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٦٧.

(٣) يراجع كتاب (تقليد الأعلام وحمية فتوى المفضل) وغيره.

(٤) في الحج الافرادى.

(٥) الفقه (الحج): ج ٤٥ ص ٢٦٢.

(٦) وأحياناً لا هذا ولا ذلك.

(٧) فصلنا الكلام عن ذلك في بعض بحوث العام الماضي.